نادرا ما أغادر شقتي، وحين أغادرها لا أخرج عن حدود تلك الشوارع المحيطة بالمبنى الذي أقطن فيه. لماذا أشعر أنني أعيش في العراء؟ لا، لا بد من تشبيه آخر يعرِّف العلاقة بيني وبين العالم من حولي، هذا تشبيه غير دقيق لأنه ناقص، وربما كان غامضا. لعل الصندوق يختصر العلاقة بشكل أدق؛ يحمل لي الصور والأحداث من كل أركان الأرض فأعايشها كأنني فيها ومنها، وأظل رغم ذلك ملتفا في عباءتي يسكنني شعوران لا أعرف أيهما يغلب، استكانتي للمشاهدة عن بعد، في مأمن من أهوال تدور تفاصيلها أمام عيني، أم تفكُّري في اجتياح شرس لوجودي، يفزعني ويستفز في الرغبة فيّ مواجهته رغم وعيي بأني لم أعد أملك إزاءه شيئا، أتحير لأنني لا أعرف إن كانت عباءتي الصوفية التي أتدثر بها وأنا جالس أمام الصندوق درعا أم كفنا. هذا أيضا تشبيه سخيف وناقص فلا الدرع ولا الكفن يفيان بالمقام، ففي الدرع أو الكفن يحتفظ الإنسان بطوله وعرضه وملامحه، وأنا أمام الصندوق لا أتعرف على نفسي، ولا أرى سوى آلة هائلة أكبر من جرّافة كردي ذات الأطنان الستين تسحقني، أصير منمنما ومجزوءاً كحجر في أطلال بيت أو ذراع مقطوع ملقى بين الأنقاض.

عندما شرعت في الكتابة بدا لي أن حريق القاهرة في السادس والعشرين من يناير عام ١٩٥٢ هو مقصدي. قلت: أتأمل مسار النار فيه، من أين أتت وما الذي التهمته وكيف ولماذا، لكني في الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ ـ وكنت بدأت الكتابة قبلها ببضعة شهور ـ شاهدت الطائرات تصدم البرجين وتشعلهما بمن فيهما وفيها. لم أصدق، وعندما صدقت تعذّر عليّ تمثل الأمر. وفي محاولتي للتمثل قلت لنفسي الحريق هو الحريق صغر أم كبر، أقصد اضطرام اللهب وضراوة النار في بنايات ومحلات في قلب القاهرة الرومية صباح يوم سبت، واضطرامها وضراوتها في برجين ومُجَمَّع حربي في قارة أخرى صباح يوم تلاثاء بعدها بتسعة وأربعين عاما، قلت: لا علاقة بين الحريقين، هل من علاقة؟! لم أعد لتأمل ذلك، انشغلت بما يخص حكايتي من